

مجلة
كلية الآداب
بالجامعة المصرية



معين التارخ
لاهل التارخ

المجلد الرابع

الجزء الأول

مايو ١٩٣٦

تصدر هذه المجلة مرتين في السنة : في مايو وفي ديسمبر ،
وثنى النسخة الواحدة منها مع أجرة البريد عشرة قروش ،
وتوجه المكاتبات الخاصة بها إلى سكرتير كلية الآداب بالجيزة .

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الجامعة المصرية

مجلة

كلية الآداب

مايو ١٩٣٦

المجلد الرابع — الجزء الأول

موضوعات القسم العربي

صحيفة

- ١ — شفيق غربال : مصر عند مفرق الطرق (١٧٩٨—١٨٠١) ،
المقالة الأولى في ترتيب الديار المصرية في عهد
الدولة العثمانية ، كما شرحه حسين أفندي
أحد أفندية روزنامه في عهد الحملة الفرنسية . ١
- ٢ — محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ٧١

موضوعات القسم الأوربي

- ١ — ك . هـ . ديتمان : أهمية الحضارة المصرية القديمة في تاريخ الثقافة
الأوربية ١
- ٢ — ف . فيكنتيف : عن "حاجي الملك الثعبان" ١٦
- ٣ — و . ج . وادل : ترجمة نصوص متعلقة بفيضان النيل ، للغة
الإنجليزية ٢٢
- ٤ — محمد سليم سالم : بحث في مسألة "المقرم" في عبادة إيزيس . ٣٩
- ٥ — ك . هـ . و . سكيف : مذكرات إضافية عن ميوس هيرموس . ٥٥

بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر

دولة المماليك البحرية — السلطان الظاهر بيبرس — مشروع إحياء
الخلافة العباسية ببغداد ومبايعة بيبرس للمستنصر بالله — انتقال الخلافة
نهائياً إلى القاهرة بمبايعة الحاكم بأمر الله — بعض الشك في نسب هذين
الخليفين — شرح بضعة ألفاظ اصطلاحية في أنظمة دولة المماليك : —
الملك — الخُشْدَاشِيَّة — الأستاذ — التَّرابِي .

تفسير :

أرى من الواجب العلمى أن أقدم لهذه المقالة بكلمة قصيرة ، وهى أنى لا أصفها
بأكثر من كونها بضع ملاحظات عنت لى أثناء قراءتى واستقصائى من أجل عملى فى
نشر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقرئى ، وقد رأيت أن أدون هذه الملاحظات
حفظاً لها من النسيان ، على أن أعود إليها فيما بعد لتعديلها بحذف أو إضافة . وقد
جعلت الحواشى فى الذيل ، حتى لا أستوقف القارئ بذكر المراجع فى كل صفحة .

اصطلح المؤرخون على تقسيم عهد سلاطين المماليك فى مصر إلى ثلاثة أقسام ،
وهى عصر المماليك البحرية أو الأتراك ، وعصر المماليك البرجية أو الشراكسة ، وعصر
المماليك العثمانيين أو البكوات . وهذا التقسيم جائز ، لا يستند كله إلى حقائق تاريخية ،
وقد لاحظ سوبرنهام (Sobernheim) ذلك فيما كتب تحت مادة ”مماليك“ فى
دائرة المعارف الإسلامية^(١) ، على أنى لست بمتعرض هنا لجميع هذا التقسيم الذى

يوافق عليه المشتغلون بتاريخ مصر إلا بمقدار ما يخص الدولة الأولى من هذه الدول
الثلاث .

سميت تلك الدولة باسم البحرية ، لأن سلاطينها كانوا تباعاً من فرقة المماليك
المعروفة بذلك الاسم ، وهي التي أنشأها السلطان الملك الصالح أيوب إبان سلطنته
(٦٣٧ — ٦٤٧ هـ ، ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) ؛ ولأن الصالح أيوب كان قد أطلق على
تلك الفرقة هذا الاسم نسبة إلى "بحر" النيل ، إذ أسكنها معه قلعة الروضة ، التي
بناها قبلاً بتلك الجزيرة الواقعة وسط ذلك النهر^(٢) . غير أن الصالح أيوب لم يكن
أول من أوجد تلك الفرقة ، بل أنه ليس المخترع لتسميتها باسم البحرية ، وهذا على
الرغم من إجماع المؤرخين على نسبة هاتين الحادثتين إليه . ذلك أنه كان لدى
السلطان الكامل ، وهو أبو الصالح أيوب وسلفه في الحكم بمصر ، طائفة من الأجناد
اسمها "البحرية"^(٣) العادلية^(٤) ، نسبة إلى أبيه السلطان العادل^(٥) ، كما أن الفرقة
التي أنشأها الصالح أيوب نفسه كانت تعرف باسم "البحرية"^(٥) الصالحية^(٦) ،
ولا معنى لهذه النسبة سوى ما أريد بها من تمييز تلك الطائفة مما كان هناك من فرق
بحرية أخرى منسوبة لمن سبق الصالح أيوب أو جاء بعده من السلاطين^(٦) بمصر .
وإذا أضيف إلى هذا أن لفظ البحرية — مجرداً عن وصف أو موصوف — كان
مستعملاً للدلالة على طائفة معينة من الأجناد النظامية في جيوش الأيوبيين
والمماليك ، وأن هؤلاء الأجناد كانوا "يبيتون بالقلعة وحول دهايز السلطان في
السفر كالحرس"^(٧) ، وأن البحرية الصالحية كانوا يعرفون أيضاً باسم "البحرية
والجندارية"^(٨) ، وضح أن لفظ البحرية بمعنى الحرسية السلطانية أقدم من عهد
الصالح أيوب ، وأن هذا السلطان لم يكن الأول في تسمية طائفة من طوائف ممالكه
باسم المماليك البحرية .

ومما يقوى هذه النظرية أيضاً أن الصالح أيوب جعل تلك الطائفة حرسه الخاص
فعلاً ، فقد أسكنها معه قلعة الروضة من دون طوائف المماليك الأخرى ، واصطحبها

معه إلى منزلة المنصورة حيث عسكر استعداداً لدفع الحملة الصليبية التي قدمت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا^(٩) . ويزيد هذه النظرية رجحاناً أن لفظ البحرية بمعناه العام — أى فرقة الحرس في الظعن والأسفار — واردة كثيراً في كتب المؤرخين المصريين^(١٠) ، وأن السلطان قلاوون (٦٧٩ — ٦٨٩ هـ ، ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) أنشأ من ذراري "البحرية الصالحية" فرقة جديدة سماها البحرية ، ورسم لها بالجلوس على باب قلعة الجبل ، وأن هذه الفرقة وأشباهاها من الحرسية بقلاع مصر والشام بقيت معروفة بذلك الاسم إلى زمن القلقشندي والمقریزی ، أى حتى القرن التاسع الهجري^(١١) .

ثم إذا سلمنا جدلاً بأن الصالح أيوب أول من رتب المماليك البحرية وسمّاهم بذلك الاسم ، فإن إطلاق لفظ البحرية على جميع سلاطين تلك الدولة بمصر لا يتسق وبعض الحقائق التاريخية المتواترة . ذلك أن الملكة شجر الدر أم خليل — وهى أول من تسلطن فى تلك الدولة — لم تكن بحكم صفة الأنوثة من الأجناد حتى يصح إعتبارها من فرقة البحرية الصالحية ، مثل أيبك وقطرز وبيبرس الذين تسلطنوا فيما بعد ؛ وهى وإن كانت ممالك يد الصالح أيوب فعلاً ، فإنه لم يشتترها ضمن من اشتراهم لتكوين فرقة البحرية إبان سلطنته ، بل قد كانت عنده جارية أم ولد ، بعثها إليه الخليفة المستعصم من بغداد منذ أيام إمارته بالشام ، وقد ظلت معه حينما حبسه الملك الناصر صاحب حلب بالكرك^(١٢) سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) . ثم إن السلطان قطز (٦٥٧ — ٦٥٨ هـ ، ١٢٥٩ — ١٢٦٠ م) ، وهو ثالث سلاطين تلك الدولة ، لم يعتبر من البحرية البتة ، إذ لم يكن من ممالك الصالح أيوب حتى تصح له هذه النسبة ، بل كان مملوكاً للسلطان أيبك^(١٣) ؛ ولعل أقطع دليل على عدم انتسابه إلى تلك الفرقة ، أنه لما علم الناس فى مصر بقتله سنة ٦٥٨ هـ ، "خافوا من عودة دولة المماليك البحرية"^(١٤) . ثم إن السلطان بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ ، ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م) ، وهو المعروف فى ترتيب تلك الدولة باسم بيبرس الثانى ،

لم ينتسب إلى البحرية قط ، إذ أنه من طائفة المماليك البرجية التي أنشأها السلطان قلاوون أثناء سلطنته^(١٥) . ويضاف إلى هذا كله أنه إن صح إطلاق اسم البحرية على السلاطين أمثال أيبك وقطز وبيبرس البندقدارى وقلاوون ، فإنه لا يمكن تطبيق هذه التسمية على آبائهم الذين تسلطوا بعدهم ، فأولئك لم يكونوا مماليك في يوم من الأيام ، بل درجوا في العز والإمارة كأولياء العهد للسلطنة من بعد آبائهم .

أما تسمية تلك الدولة باسم دولة المماليك الأتراك^(١٦) ، فهو أقل صلاحية من إطلاق اسم المماليك البحرية عليهم . ذلك أنه مهما قيل في أصل كلٍّ من سلاطينها ، فالقول بأنهم في الأصل أجلاب من أسواق النخاسة البيضاء بالشام وآسيا الصغرى والجنوب الشرقى من أوربة ، كفيّل وحده بالشك في صحة جنسيتهم . وهذا فضلا عما يوجد من الأدلة التاريخية التي تنفي أنهم كانوا جميعاً من الأتراك : فالسلطنة شجر الدر أرمنية^(١٧) (يقال أيضاً إنها تركية الأصل) ؛ والسلطان العادل كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ ، ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) مغولى الأصل ، وكان صهراً لهولاكو نفسه ، وقد أسره المماليك في وقعة حمص^(١٨) سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) ؛ والسلطان لاجين (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ ، ١٢٩٦ — ١٢٩٨) يقال إنه من أبناء إحدى البلاد الواقعة على البحر البلطى بالشمال الغربى من أوربة ، وقد كان انخرط في سلك فرقة الفرسان التيوتون المسيحية . (Ordre des Chevaliers Teutoniques) ، وحارب في صفوفها ضد الوثنيين سكان إقليم ليفونية (Livonie) على البحر البلطى ، وجاء إلى الشام صليبياً يبتغى مع الصليبيين تخليص بيت المقدس من المسلمين ، ثم اعتنق الإسلام بعد ذلك وصار في زمرة المماليك بمصر ، وما زال يتقلب في الخدم والوظائف حتى آلت إليه السلطنة^(١٩) .

ولقد كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس^(٢٠) البندقدارى الصالحى (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ ، ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) أقوى شخصيات هذه الدولة ، وأكثرها توفيقاً

في أعماله الحربية والسلامية . غير أنه لم يكن بطل وقعة غزة (٦٤٢ هـ ، ١٢٤٤ م) ، كما تواتر في كتب المؤرخين الحديثين^(٢١) ، وهي الوقعة التي انتصرت فيها جنود الصالح أيوب والحوارزمية على جيوش الصليبيين وحلفائهم من ملوك بني أيوب بالشام ، والتي لم تقم بعدها للصليبيين قاعدة بالشرق . وإنما كان بطل تلك الواقعة الحاسمة مملوك آخر للصالح أيوب اسمه أيضاً ركن الدين بيبرس ، وأصله من ممالك السلطان الكامل ، ثم انتقل إلى خدمة الصالح أيوب وصار من خلصائه ، وقد توفي هذا المملوك سنة ٦٤٤ هـ^(٢٢) (١٢٤٦ م) . على أن الظاهر بيبرس كان أثناء إمارته في عهد السلطان قطز قائداً لوقعة أخرى عند غزة ، وهي الوقعة الظافرة التي سبقت نصرة المماليك على جيوش هولاءكو عند عين جالوت قرب بيسان سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) ؛ فاعل اقتران اسمه بتلك الوقعة الأخرى عند غزة هي التي أدت إلى تلك الغلطة التاريخية الشائعة .

هذا والمشهور أن الظاهر بيبرس هو الذي فكّر في اجتذاب الخلافة العباسية إلى القاهرة^(٢٣) ، وأن نجاحه في ذلك المشروع قد أقال الخلافة من عثرتها الدامية التي لحقتها على يد هولاءكو وجنوده . غير أنه من باب وضع الأمور في مواضعها أن يُعرّف أولاً أن بيبرس ليس أول من فكّر في ذلك المشروع من الملوك والسلاطين الذين تداولوا الحكم في مصر الإسلامية ، وإنما هو الذي نجح في تحقيقه فحسب : فقد حاول أحمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) إلى مصر ، كأنما أراد بذلك أن يلبس دولته الجديدة ثوباً شرعياً ؛ وفكّر محمد الإخشيدي في مثل ذلك حينما ذهب إلى الشام سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) لإغاثة الخليفة المتقي من جور الأمراء الأتراك الحمدانيين بحلب^(٢٤) . ثم إنه لما وجد أمراء المماليك البحرية الصالحة أن السلطنة في مصر قد أضحت في أيديهم بعد قتل المعظم توران شاه سنة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ م) ، رأوا أن يسّجوا دولتهم بموافقة الخليفة العباسي

ورضاه ، وذلك رغبة في التحصن مما حاوله أبناء البيت الأيوبي بالشام من أجل استرجاع السلطنة بمصر^(٢٥) .

وقد فعل ذلك أمراء المماليك عندما أعلنوا سلطنة شجر الدر ، فأرسلوا إلى بغداد يلتمسون الموافقة من الخليفة على ذلك الاختيار ، ثم مالبثوا أن خلعوا تلك السلطنة الماهرة ، وأقاموا مكانها المعز أيبك ، بعد أن جاءهم كتاب المستعصم ينعي عليهم إقامة امرأة في السلطنة ، إذ ورد فيه ” إن كانت الرجال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً^(٢٦) “ . وقد لجأ المعز أيبك إلى الخلافة العباسية في الشهور الأولى من سلطنته ، عند ما بلغه أن جماعة من العسكر غير راضية عنه ، وأنهم عازمون على إقامة أحد أبناء البيت الأيوبي — وهو الملك المغيث عمر — في السلطنة ، وذلك بأن أمر فنادى في القاهرة ومصر ” إن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي ، وإن الملك المعز نائبه بها^(٢٧) “ . وفي سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦) لجأ المعز أيبك إلى تلك الوسيلة مرة ثانية ، بعد أن صالح أشد الطامعين في سلطنة مصر من الأيوبيين ، وهو الناصر صاحب حلب ودمشق ، فأرسل إلى الخليفة ببغداد ” يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية ، أسوة من تقدمه من ملوك مصر “ .

ثم حدث بعد ذلك بسنتين أن تمزقت الخلافة بسقوط بغداد في يد هولاكو ، وقتل الخليفة المستعصم وولده وغيرهم من أكابر بغداد ، وفر من أبناء البيت العباسي ومن رجالهم كل من استطاع إلى الفرار سبيلاً . وقد غير ذلك الحدث من سياسة سلاطين المماليك نحو الخلافة ، فأخذوا من ثم يعملون على اجتذاب من استطاعوا من الفارين من أبناء البيت العباسي وغيرهم إلى القاهرة ، ويظهر أن سلطان ذلك الوقت — وهو قطز — كان يفكر في إمكان إعادة الخلافة إلى بغداد . والدليل على ذلك أنه — وهو بطل النصر الباهر على التتار في وقعة عين جالوت — استدعى إلى دمشق حيث كان مقبلاً بعد نصرته هذه ، أحد أبناء البيت العباسي الواصلين إلى الشام حديثاً ، واسمه أبو العباس أحمد ، واجتمع به وبايعه^(٢٨) بالخلافة .

وقد رجع هذا "ال خليفة" من عند قطز ، وفي خدمته جماعة من العرب ، فافتتح بهم عانة والحديثة والأنبار من بلاد العراق ، وصاف شرذمة من عسكر التتر وانتصر عليهم (٢٩) .

ثم حدث أن اغتيل السلطان قطز على يد الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى الذى آلت إليه السلطنة ، فأرسل السلطان الجديد إلى أبى العباس أحمد هذا يستدعيه إلى حضرته ، فقدم دمشق حيث جهزه نائبا وبعثه إلى القاهرة . غير أن أبا العباس كان قليل الحظ — تلك المرة على الأقل — (٣٠) ، إذ أن سليلا آخر من أبناء البيت العباسى ، واسمه أبو القاسم أحمد ، كان قد سبقه إلى حضرة بيبرس (٣١) . ففضل أبو العباس الرجوع إلى الشام ، وقصد حلب حيث بايعه أميرها شمس الدين أقوش البرلى الخارج عن طاعة السلطان ، كما بايعه غيره من زعماء حلب . (٣٢) وقد أمده هذا الأمير بسبعائة فارس من التركمان ، فقصد بهم عانة يريد مناوشة التتر مرة أخرى ، ويظهر أنه أقام هناك مدة (٣٣) .

أما أبو القاسم أحمد فقد وصل إلى الديار المصرية فى جماعة من العربان ، فتلقاه السلطان بيبرس خارج القاهرة ، وأنزله بقلعة الجبل ، وبالع فى إكرامه وإقامة ناموسه . ثم عقد مجلس عام حضره جميع رجال الدولة وكبار التجار والناس ، وشهد جماعة العربان وخادم من البغاددة أمام هذا الجمع بأن الأمير أبا القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر العباسى ، كما شهد بالاستفاضة من حضر من القضاة . عند ذلك أعلن قاضى القضاة قبوله لشهادات القوم ، وأسجل على نفسه بالثبوت ، وقام فبايع أبا القاسم الذى لقب بالمستنصر بالله ؛ ثم تبعه السلطان وجميع من حضر المجلس من القضاة والفقهاء . فلما تمت البيعة قلّد الخليفة السلطان بيبرس "البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار" ؛ وبعد ذلك قام جميع من حضر فبايعوا الخليفة على اختلاف طبقاتهم . ثم كتب السلطان فى نفس اليوم إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة على من قبلهم للخليفة الجديد ، وأن يدعى

له من المنابر ثم يدعى للسلطان بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما^(٣٤) .

أخذ بيبرس بعد ذلك بقليل يجهز الخليفة بالمال والسلاح والجند والكرع لاسترداد بغداد من التتر وإرجاع الخلافة إليها ، ويقال إن مبلغ ما أنفق في هذا المشروع لم يقل عن ألف ألف دينار^(٣٥) . وخرج السلطان مع الخليفة إلى دمشق ، وفي عزمه أن يكون عدد الجيش الخلفي عشرة آلاف فارس ، غير أن أحد أمراء الموصل وسوس إلى السلطان وهو بدمشق "أن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر"^(٣٦) ، فأوجس خيفة بيبرس ، ولم يجهز الخليفة بأكثر من ثلاثمائة فارس ، كأنما أراد بذلك أن يلقي به التهلكة . وسار الخليفة بهذا العدد اليسير إلى الرحبة ، حيث انضاف إليه أربع مائة فارس من عرب العراق الذين كان قد لجأ إليهم في أول أمره ، كما لحق به ستون مملوكا من ممالك الموصل ، وثلاثون فارسا من عسكر حماة . وتقدم الخليفة بذلك الجند المنوع من الرحبة إلى مشهد على ، حيث وجد صنوه أبا العباس أحمد في سبعمائة فارس من التركمان^(٣٧) ، فاتفقا بعد مفاوضة على اجتماع الكلمة لإقامة الدولة العباسية ، ومضيا معا إلى الحديثه يريدان هيت^(٣٨) . وبالقرب من هيت التقت جيوش التتر بعساكر الخليفة ، وكان أمرا مقضيا ، إذ أحاطوا بهم وغلبوهم ، وأتوا على معظمهم ، ولم يفلت منهم سوى الأمير أبي العباس أحمد وبضعة من القواد في نحو الخمسين فارسا . أما الخليفة المنكود فلم يعرف له خبر ، فيقال إنه قُتل بالمعركة ، ويقال بل نجا في طائفة من العرب فمات عندهم^(٣٩) .

هنا سنحت الفرصة للأمير أبي العباس أحمد ، وسواء أكان الظاهر بيبرس قد أرسل إليه يستدعيه إلى القاهرة أو لم يرسل ، فالمعروف أن هذا الأمير العباسي وصل إلى دمشق بعد وقعة هيت بشهر فقط ، وأنه خرج منها يريد مصر ، وأن بيبرس احتفل به وأنزله بقلعة الجبل كما فعل مع المستنصر^(٤٠) . على أنه يظهر أن السلطان بدأ يفكر في تلك الآونة في إقامة الخلافة العباسية بمصر ، إذ وصل القاهرة بعد أبي العباس

أحمد بأيام فقط جماعة من ممالك الخليفة المستعصم الذين كانوا قد فروا إلى الحجاز من وجه التتر ، وكان حضور هؤلاء بناء على أمر بيبرس^(٤١) ؛ كما حضر كذلك أيضا بعدهم بقليل عدة من شيوخ عرب العراق^(٤٢) . ثم أخذ بيبرس يعمل لمبايعة أبي العباس بالخلافة ، فعقد هذه المرة أيضا مجلساً عاماً بالإيوان الكبير بقلعة الجبل ، وجاء أبو العباس فقرأ نسبه على الناس بعد ما ثبت على قاضي القضاة ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وبايعه السلطان على ذلك . فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور البلاد والعباد ، ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم في مبايعة هذا الخليفة الثاني^(٤٣) . وكان اليوم التالي لهذا يوم الجمعة ، فخطب فيه من منابر مصر والقاهرة بالدعاء للخليفة ، كما خطب فيما بعد على منابر دمشق ومكة والمدينة والقدس^(٤٤) .

هكذا أُحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة ، غير أنه لم يكن من المعقول أو المنتظر إن يفكر بيبرس في إعداد هذا الخليفة أيضا لاسترجاع بغداد وإقامة الخلافة بها ، بل إنه عزم على أن يكون مقامه القاهرة ، حيث يكون الخليفة على مقربة منه وتحت عينه . ولم يُرد السلطان بذلك أن يخلق في عاصمته سلطة — دينية أو سياسية — بجانب سلطته ، بل قصد أن يكون الخليفة شخصية نافعة فحسب ، يستمد منها ويستأديها ما تحتاجه دولة المالك من الحماية الروحية . يدل على ذلك أن السلطان لم يأمر تلك المرة بأن يقرن اسم الخليفة باسمه على السكة ، كما فعل مع المستنصر بالله ؛ وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة محترزاً عليه ، ولم يترك له غير الدعاء في الخطبة ” لا غير ذلك ”^(٤٥) . وعلى هذا فلم تكسب الخلافة العباسية في إحيائها إلا كسباً زائفاً ، أما الذين أفادوا من ذلك الإحياء فسلطين المالك والقاهرة عاصمتهم : إذ صار السلاطين من ذلك الوقت إلى الفتح العثماني لمصر يفرضون لأنفسهم مقاما ساميا على ملوك العالم الإسلامي ، باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعون ببيعته^(٤٦) ؛ أما القاهرة فقد بسقت في شمس شهرة دينية واسعة ، إذ صارت مركز

الخلافة ، وذلك فوق شهرتها التجارية التي كانت قد جعلت هولاء يسمونها
”كروان سراي“ في إحدى رسائله ، أي محطة الرحال والمتاجر والمال^(٤٧) .

إنما يظهر على الرغم من ثبوت نسب الخليفين المستنصر والحاكم عند
السلطان ورجال دولته ، أن كان هناك بعض الشك في صحة انتساب هذين الخليفين
إلى البيت العباسي ، فقد جاء في تاريخ أبي الفداء^(٤٨) ، تحت سنة ٦٥٩ هـ ، ما يفهم
منه أنه — وهو معاصر^(٤٩) تقريباً — ، كان شاكاً في صحة نسبة المستنصر ، ونصه :
”في هذه السنة في رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود
اللون اسمه أحمد ، زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله ابن الإمام الناصر ، وأنه خرج
من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر . فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه
جماعة من الأكابر ... ، فشهد أولئك العرب أن هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر
محمد ابن الإمام الناصر ، فيكون عم المستنصر ... وبإيعه الملك الظاهر والناس
بالخلافة ، واهتم الملك الظاهر بأمره وعمل له الدهاليز والجدارية وآلات الخلافة ،
واستخدم له عسكرياً وغرم على تجهيزه جملاً طائلة ، قيل إن قدر ما غرمه عليه كان ألف
ألف دينار ... وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود المذكور وتوجها إلى دمشق^(٥٠) ...“ .
ويظهر أن هذا الشك تسرب إلى العامة من الناس بالقاهرة وغيرها ، بدليل تلقيهم
للمستنصر بلقب ”الزرايتي“ ، وهو لقب غريب سري عليه^(٥١) .

ويوجد أيضاً في تاريخ أبي الفداء ، تحت سنة ٦٦١ هـ ، عبارة بشأن الخليفة
الحاكم بأمر الله فيها التفات ، وهي وإن لم تحتو على تشكيك واضح في نسبة هذا
الخليفة كالتشكيك السابق بصدد الخليفة المستنصر ، فإنها لم تخل من الغمز ، ونصها :
”وفي أواخر ذي الحجة من هذه السنة جلس السلطان الملك الظاهر مجلساً عاماً ،
وأحضر شخصاً كان قد قدم إلى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستائة ، من
نسل بني العباس يسمى أحمد ، بعد أن أثبت نسبه ، وبإيعه بالخلافة ، ولقب أحمد
المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ...“ .

ومما يدل على أن تلك الشكوك لم تخمد بقيام الحاكم بأمر الله ، وأن أناساً ظنوا أنهم مستطيعون ما استطاع كل من المستنصر والحاكم ، أن شخصين قدما على السلطان بيبرس وهو بدمشق سنة ٦٦٤ هـ ، أى بعد مبايعة الحاكم بثلاث سنوات ، فادّعى أحدهما أنه ابن الخليفة المستعصم ، يريد بذلك أنه أحق بالخلافة من الحاكم بأمر الله ، وذكر الثانى أنه من أبناء الخلفاء ؛ وقد تبين للسلطان كذب الاثنين ، فسيرهما إلى مصر حيث سجن^(٥٣) .

أنتقلُ هنا إلى مناقشة بضعة ألفاظ خاصة بمصطلح دولة المماليك بمصر ، وهى المملوك ، والخشداش ، والأستاذ ، والترابى ؛ وهذه الألفاظ ماعدا الأخير منها معروفة المعنى فى الكتب الحديثة المؤلفة فى تاريخ المماليك ، ولا يعدو الغرض من مناقشتها هنا سوى إضافة ملاحظات جديدة مكاملة لمعانيها المتواترة فى الكتب ، لعلها تلقى ضوءاً جديداً على بعض حوادث تلك العصور . أما لفظ المملوك الذى صار جمعه علماً على تلك الدولة ، فقد كان السلاطين ينعتون أنفسهم به فى رسائلهم إلى ملوك الدول الإسلامية فقط ، وإلى زملائهم الأقدمين من كبار الأمراء فى الدولة^(٥٤) . غير أنه لم يكن الغرض من هذا النمط فى الكتابة إظهار التواضع أو الخجل ، بل تقرير الحال الواقعة واللباهة بها لدى ملوك الإسلام ، أو السياسة والمداورة قبل كبار الأمراء . ذلك أن السلطان المملوكى كان أبعد ما يكون من الخجل من أصله أو فصله أو نشأته^(٥٥) عند كتابه لفظ "مملوك" إلى ملوك الدول الإسلامية^(٥٦) ، وكان غرضه من مخاطبة كبار الزملاء بهذه الصيغة أن يشعرهم — وهو منهم وقد نشأ نشأتهم — أنه لا يتسامى عليهم أو ينسى مكانه بينهم على الرغم من سلطنته^(٥٧) .

والواقع أن علاقة الزمالة بين المماليك ، وهى المعبر عنها فى المراجع المعاصرة بلفظ الخشداشية^(٥٨) ، كانت أقوى الروابط بينهم جميعاً من أمراء وسلاطين ، بل إن نظام التعاقب الوحيد الذى جرى عرفهم عليه كان قائماً عليها ، إذ كانت الطائفة الأقوى من بينهم تنتخب للسلطنة غالباً أقدم زملائها أو أكبرها سناً^(٥٩) ، وتخلع من أجله ابن السلطان المتوفى على الرغم من الأيمان والمواثيق السابقة . ويشبه هذه الرابطة

أهمية وأثراً في تاريخ المماليك علاقة الأستاذ بماليكه الذين اشتراهم لنفسه ، إذ كان إخلاصهم له دون غيره ، وموقفهم بإزاء الحوادث الطارئة مستمداً من موقفه . وكان ذلك كله راجعاً إلى قلة الروابط الأخرى بين أمراء المماليك ، إذ كانوا يجلبون من مختلف أسواق النخاسة البيضاء ، فلم يوجد بينهم من الروابط سوى ما جدّ عليهم بمصر^(٦٠) . ولقد كان من بين صفوف المماليك طائفة لا تمتّ لنظامهم بشيء سوى أنهم كانوا يعيشون مثلهم حول البلاط السلطاني ، يتنعمون بإنعامه وإماراته ووظائفه . تلك هي طائفة الترابي ، التي تكوّنت منذ أيام الدولة الفاطمية بمصر من صغار أسرى الحروب ، إذ " كانت العادة أن الأسرى ينزل بهم في المناخ^(٦١) ، وتُضاف الرجال إلى من فيه من الأسرى ، ويُمنى بالنساء والأطفال إلى القصر ، بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ، ويُفرّق ما بقي من النساء على الجهات والأقارب فيستخدموهن ويربوهن حتى يتقن الصنائع ، ويُدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين^(٦٢) ، فيربونهم ويتعلمون الكتابة والرماية ، ويقال لهم الترابي ، ومنهم من صار أميراً من صبيان^(٦٣) خاص الخليفة " . وظلّت تلك الطائفة موجودة أيام الدولتين الأيوبيه والمملوكية ، ويلاحظ أن أصلها أشبه ما يكون بأصل بعض العناصر التي تكوّنت منها الإنكشارية في الدولة العثمانية^(٦٤) . غير أن الترابي لم تلعب في حوادث دولتي الأيوبيين والمماليك بمصر دوراً ظاهراً مثل الذي قامت به الإنكشارية في الدولة العثمانية ، لأنها لم تخصّص مثل الإنكشارية للحياة الحربية وميادين القتال ، بل ظلّت فئة حول بلاط السلطان ، يكون منهم الغلمان وخدام القصر . على أن وجودهم لم يخل من أثر في تاريخ بعض السلاطين ، فقد كان تقريب السلطان العادل الثاني إليهم ، وإعطائهم الأموال والإقطاعات ، والاقتداء بآرائهم ، أحد الأسباب التي أوحشت منه أكابر الدولة ، مما أدّى أخيراً إلى خلعه^(٦٥) . وقد كان إعراض السلطان المعظم توران شاه عن ترابي أبيه وغلمانه وماليكه ، واطراحه لأكابر الأمراء أيضاً ، واختصاصه بجماعته الذين قدموا معه من إمارته الصغيرة بحصن كيفا ، سبباً في المؤامرة الشنيعة التي انتهت بقتله ، وكان ذلك آخر العهد بالدولة الأيوبيه بأرض النيل^(٦٦) .

الحواشي

- (١) راجع (Enc. Isl. Art. Mamlūks) ، حيث جاء في هذا الصدد ما نصه بالإنجليزية :
"A somewhat arbitrary distinction is made between two dynasties, the Bahri... and the Burdjī..."
- (٢) انظر المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٠١ ، ٣٣٩ — ٣٤٠ ؛ ابن دقاق : كتاب الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٠٩ — ١١٠ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٣٩ ؛ ج ٤ ، ص ١٧ ؛ وغيرهم . هذا وجميع المراجع الأخرى ، من مصرية وأجنبية ، متفقة على ذلك الاصطلاح وتلك النسبة ، راجع مثلا (Enc. Isl. Arts. Mamlūks & Bahri; Précis de l'Histoire d'Egypte, Tome 2, p 227.)
- (٣) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٣ ، وحاشية ٢ بنفس الصفحة .
- (٤) يلاحظ أن السلطان العادل أبو الكامل وجد الصالح ، وأنه سبقهما في السلطنة على مصر ، ويستنتج من ذلك أن البحرية العادلية يرجعون في الواقع إلى أواسط الدولة الأيوبية ، إن لم يكونوا في أوائلها .
- (٥) المقرئى : المواعظ والاعتبار (طبعة بولاق) ، ج ٢ ، ص ٢١٧ ؛ بيبس المنصوري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (مخطوطة المتحف البريطاني) ، ج ٩ ، ص ٩٦ ب ، ١١٠ ب .
- (٦) انظر النويري : نهاية الأرب (مخطوطة باريس) ، ج ٢٩ ، ص ٢٧٨ ؛ وبيبس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١١١ ؛ والمقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٦٨٦ ، حيث ورد بها جميعا ذكر "البحرية الظاهرية" ، أى المنسوبة للسلطان الظاهر بيبس .
- (٧) راجع القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥) ، حيث يقول إن الأجناد في الجيش ثلاث طبقات ، وهى المماليك السلطانية ، وأجناد الحلقة ، والبحرية . وقد عرف الطبقة الثالثة بما أورد هنا في صلب المقالة ، وأردفه بتقرير "أن أول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم الملك الصالح نجم الدين أيوب ..." ، وهذا القول وأشباهه في المراجع الأخرى هو ما أتعرض لمناقشته هنا .
- (٨) هذه التسمية المزدوجة واردة في المقرئى (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٠) كالآتي : "الطائفة التركية التى تعرف بالبحرية والجمدارية" . والجمدارية طائفة من رجال البلاط السلطاني ، والجمدار حسبما ورد في القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٩) هو الذى "يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه ... وهو فى الأصل مركب من لفطين فارسيين ، أحدهما جاما ومعناه الثوب ، والثانى دار ومعناه ممك ... فيكون المعنى ممك الثوب" .
- (٩) المعروف أن فرقة البحرية الصالحية كانت معسكرة حول قصر السلطان بمنزلة المنصورة ، (انظر المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٠) ، وهذه الحقيقة مما يقرب معنى لفظ البحرية إلى المدلول العام المشار إليه .
- (١٠) جاء فى المقرئى (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦٧ — ٥٦٨) ، تحت سنة ٦٦٠ هـ ، مانصه : "فرسم السلطان بتجريد الأمير شمس الدين سنقر الرومى فى جماعة من الحلقة والبحرية" . وفى نفس المرجع والجزء (ص ٦١٢) ، تحت سنة ٦٧٢ هـ ، العبارة التالية : "وأطلق السلطان من التشاريف ماعم به سائر من فى خدمته ، من ملك ووزير ، ومقدمى الحلقة"

والبحرية ، ومقدمى الممالك والمفردية ، ومقدمى البيوتات السلطانية ، وكل صاحب شغل ... “ .
انظر أيضا نفس المرجع والجزء (ص ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٥١٨ ،
٥١٩ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨) .

(١١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٧ ؛ المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٥٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٢ ، ١٨٥ .

(١٢) يوجد فى عبارة المقرئى (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٩) بصدد سجن الصالح
أيوب بالكرك ، دعاة وسخرية لطيفتين ، ونصها ” وبعث الناصر به إلى الكرك ، ولم يترك معه
غير مملوك واحد يقال له ركن الدين بيبرس ، وبعث معه جاريته شجر الدر أم ولده خليل ، وأنزله
بالقلعة ، وقام بجميع ما يحتاج إليه ، بحيث لم يختل من حاله سوى أنه فقد الملك فقط “ . هذا
وركن الدين بيبرس المذكور هنا غير الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى تسلطن فيما بعد .
انظر ص ٧٤ .

(١٣) راجع (Enc. Isl. Art. Kutuz) ، حيث ورد أن اسم قطز الأصلى محمود بن ممدود ،
وأن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، وأن أباه ابن عم السلطان جلال الدين ،
وأنه سبي عند التتار وبيع بدمشق للسلطان أليك . انظر أيضا المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ،
ص ٤١٧ ، حاشية ٢ ؛ ص ٤٢٧ ، حاشية ٣ ؛ ص ٤٣٧ ، حاشية ٣ ؛ ابن واصل : مفرج
الكروب (مخطوطة باريس) ، ص ٣٩١ .

(١٤) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٧ . ويلاحظ أن فرقة الممالك البحرية
الصالحية ، وعلى رأسها بيبرس البندقدارى ، كانت قد تشتت بالشام وآسيا الصغرى فعلا منذ قتل
السلطان أليك لزعيمها أقطاي . انظر نفس المرجع والجزء ، ص ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ — ٣٩١ ؛
المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٢١٧ .

(١٥) انظر (Enc. Isl. Arts. Baibars II. & Burdjī)

(١٦) يوجد بأحمد حيطان المدخل لدار الآثار العربية بالقاهرة قائمة بأسماء الدول التى
تعاقت الحكم فى مصر الإسلامية ، واسم دولة الممالك الأولى فى تلك القائمة ” دولة الممالك
التركان “ ، وقد جاءت هذه التسمية أيضا فى (Devonshire : L'Egypte Musulmane, p. 71) .
هذا وفى ابن عبد الباسط الحنفى (كتاب نزهة الأساطين فيمن ولى ملك مصر من السلاطين ،
ص ١١٨) ، أن هذه الدولة سميت باسم الدولة التركية التتارية ، وهذا يوافق ما ورد فى ابن دقاق
(مخطوطة فاتح) ، والقلقشندى صبح الأعشى ، بأن الممالك الأتراك كلهم من الففجاق ، وهم تتر
القبيلة الذهبية على حوض نهر الفلجا . ويلاحظ أيضا أن الجبرقى (عجائب الآثار ، ج ١ ،
ص ١٨ ، ٢٠) سمي تلك الدولة باسم الدولة ” القلاونية “ نسبة إلى السلطان قلاون الذى شغل
عهده وعهد سلالته أكثر من ثلاثة أرباع مدة الدولة المملوكية ، وأن تلك التسمية لا تقل عن
أشباهها المذكورة هنا قريبا من الصحة .

(١٧) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

(١٨) راجع (Précis de l'Histoire de l'Egypte, Tome 2. p. 241) ، وكذلك
(Zelterstéen : Beitäge. p. 33) .

(١٩) انظر (Isid ; Loc. Cit.)

(٢٠) يوجد بالمقریزی (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧٤) ، ضمن رسالة من عند هولاكو ملك المغول بفارس ، أن يبهرس هذا جلب إلى سيواس ويبيع بها ، وهذه العبارة قينة بأن تسد فراغا في ترجمة هذا السلطان ، إذ أن كل المعروف عن أصله وحدثاته لا يعدو كثيراً عن أنه ولد سنة ٦٢٣ هـ (١٢٣٣) ببلاد القفجاق ، وأنه يبيع بثمان بنحس للأمرير علاء الدين البندقدار ، وأنه انتقل بعد ذلك إلى طائفة ممالك الصالح أيوب .

(٢١) انظر مثلاً (Barker: The Crusades, pp. 82, 84)

(King: The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 233.)

(Stevenson: The Crusaders In The East p. 323.)

(٢٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٢٥٩ ؛ المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٥٠ ، وحاشية ٢ بنفس الصفحة .

(٢٣) انظر مثلاً (Lane-Poole: History of Egypt. p. 264 et seq.) .

(٢٤) راجع تفصيل ذلك في (Lane-Poole: History of Egypt. pp. 69, 84.) .

(٢٥) لم يكن أمراء الممالك البحرية الصالحية مجددین لتلك السياسة ، فقد فعل مثل ذلك تماماً سلاطين الأيوبيين وسلالتهم بمصر والشام منذ السلطان صلاح الدين ، بل إن أبناء الأيوبيين الذين قاموا لاسترجاع سلطنة مصر إلى البيت الأيوبي من سلاطين الممالك لجأوا أيضاً إلى تلك السياسة التقليدية ، وربما كان ذلك منهم لمقاولة حركة الممالك بمثلها . انظر (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٨ ؛ (Arnold: The Caliphate. p. 89) .

(٢٦) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٢٧) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٧٠ .

(٢٨) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(٢٩) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٨ .

(٣٠) سيقابل القاريء هذا الأمير العباسي مرة أخرى فيما يلي .

(٣١) كان هذا الأمير العباسي الثاني ، حسبما ورد في المقریزی (كتاب السلوك ، ج ١ ،

ص ٤٤٨) ، تحت سنة ٦٥٩ هـ ، قد نزل عند عرب بني مهنا بأطراف العراق حيث أقام مدة ، ثم سار إلى دمشق في نحو الحسين فارساً من عرب خفاجة ، وألقى إلى نائبها أنه يريد اللحاق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة ، فكتب السلطان إلى نواب بالشام بالقيام في خدمته ، وأن يسير معه حجاب من دمشق إلى القاهرة . هذا ومما يدل على أن السلطان بيبرس ونوابه قد اتفقوا على ضرورة اجتذاب الخلافة العباسية ، أن نائب دمشق لما رأى فرسان العرب من خفاجة ، وكانوا معروفين لديه قبلاً ، قال ”بهؤلاء يحصل المقصود“ . انظر نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٣٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٨ .

(٣٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٨ ؛ المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ،

ص ٤٦٣ .

(٣٤) هذه الفقرة كلها متقولة بتصرف واختصار من المقریزی (كتاب السلوك ، ج ١ ،

ص ٤٤٨ ، وما بعدها) .

- (٣٥) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ص ١٤٧ ، في (Rec. Hist. Or. I.) ؛
المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٧ .
- (٣٦) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٢ .
- (٣٧) انظر ما تقدم .
- (٣٨) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥٧ — ٤٦٣ .
- (٣٩) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦٧ .
- (٤٠) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦٨ .
- (٤١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٨ ، وحاشية ٤ بنفس الصفحة ؛
(D'Ohsson : Histoire des Mongols, III. pp. 377.)
- (٤٢) ابن واصل : مفرج السكروب ، ص ٤٠٠ ؛ المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ،
ص ٤٧٦ ، وحاشية ١ بنفس الصفحة .
- (٤٣) هذا الوصف منقول بتصرف واختصار كثير من المقريزي (كتاب السلوك ، ج ١ ،
ص ٤٧٧) .
- (٤٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٩٨ .
- (٤٥) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ص ١٤٨ ، في (Rec. Hist. Or. I.) ،
وكذلك (Lane-Poole : History of Egypt. p. 262. N. 1.)
- (٤٦) انظر (Arnold : The Caliphate. pp. 98, 99.)
- (٤٧) انظر المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٦ ، وحاشية ٣ بنفس الصفحة .
- (٤٨) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ص ١٤٧ ، في (Rec. Hist. Or. I.) .
- (٤٩) ولد أبو الفداء سنة ٦٧٢ هـ ، أي بعد مجيء المستنصر إلى القاهرة بثلاث عشرة سنة
فقط ، فيكون قد سمع أشباه هذا الشك من المعاصرين له والمتقدمين عليه في السن .
- (٥٠) انظر أيضا ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٥٠) ، حيث يسمى هذا
الخليفة باسم "المستنصر بالله الأسود" . هذا وقد وصف المقريزي هذا الخليفة بالسمرية ، غير
أنه لم يتعرض لنسبه بشك البتة ، ونصه "فكان الخليفة المستنصر بالله هو الثامن والثلاثون من
خلفاء بني العباس ، وبينه وبين العباس أربعة وعشرون أباً ؛ وكان أسمر اللون وسيما ، شديد
القوى على المهمة ، له شجاعة وإقدام ..." .
- (٥١) جاء بالمقريزي (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤٨) أن الخليفة المستنصر كان يقال له
"الزرايتي" ، لقب لقيه به العامة ، ولم يستطع كاتب هذه السطور أن يهتدى إلى معنى مفهوم لذلك
التلقب ، إلا إذا كان المقصود لفظ "الزرايتي" كما ورد في أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر ،
طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٢٢٢) ، نسبة إلى اللفظ العامي "زربون" ، المستعمل في مصر للدلالة
على الشخص الأسود . هذا وقد ترجم 1. I. (Quatremère : Hist. des Sultans Mamlouks. I. 1)
(p. 146) هذا اللفظ إلى (Zeratini) ، ويوجد في ابن تغري بردى (النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ،
ج ٦ ، ص ٧٧٧) شخص اسمه "الزرايتي" ، وفي (Wiet : Les Biographies du Manhal
(Safi, No. 2278. p. 347.) أيضا من اسمه "الزرايتي" ، فلعل إحدى هاتين الصيغتين هي
النسبة المقصودة .
- (٥٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ص ١٤٨ ، في (Rec. Hist. Or. I.) .

(٥٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٨ — ٣٩ ؛ المقرئى : كتاب السلوك : ج ١ ، ص ٤٥٩ ، وحاشية ٧ بنفس الصفحة .

(٥٤) الفلشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٥٤ ؛ المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦٤ ؛ وكذلك (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 49. N. 58; II. 1. p. 5 N. 5.)

هذا وقد كان السلطان ينعت نفسه أحياناً في كتبه لأكابر الأمراء بلفظ " ولدكم " ، غير أن تلك الصيغة كانت مقصورة على أكابر الأمراء فقط . أما الأمراء العاديون فكانت الصيغة المستعملة لهم تارة " أخوكم " وتارة " والدكم " ، بحسب ما يقتضيه المقام . انظر المقرئى (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٩) .

(٥٥) مما يدل على هذا أن السلاطين كانوا يلقون نسبتهم إلى من اشتروهم ضمن أسمائهم ، مثل السلطان الملك الظاهر بيبرس العلاني البندقدارى الصالحى ، نسبة إلى الأمير علاء الدين البندقدارى ، ثم إلى الصالح أيوب .

(٥٦) كان هؤلاء يعبّر سلاطين الممالك بأصلهم دائماً ، فقد جاء في كتابه إلى السلطان قطز ، نقلاً عن المقرئى (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٧) ، مانعه : " يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس الممالك الذين هربوا من سيوفنا إلى الإقليم " ، يعنى مصر ؛ وورد أيضاً في رسالته إلى السلطان بيبرس تعبير من النوع نفسه . انظر المقرئى (نفس المرجع والجزء ٢ ، ص ٥٤٧) ، ونصه : " أنت مملوك وأبعت في سيواس ، فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض " . هذا وقد سرى لفظ مملوك إلى اللاتينية بمعنى الرقيق الأبيض ذكورا وإناثا (Mumulicos sive mumulichas) .

راجع (Heyd : Hist du Commerce du Levant etc. II. p.35) ، وقد استعمل في مدينة جنيف بسويسرة في القرن السادس عشر للدلالة على المستهترين والصابئين والخونة الذين كانوا أقلية قوية ضد الدولة الكلفنية القائمة بتلك المدينة حين ذاك ، راجع (Davis : Europe From 800 To 1789. p. 164. ، وكذلك (Camb. Mod. Hist. II. p. 362) ، حيث ورد مانعه " The patriots were known as "Eyguenots", confederates, men who had bound themselves by an oath to stand together and serve the common cause; the Sovoyard party were termed "Mamelukes", because as Bonivard tells us, they surrendered freedom and the public weal that they might submit to tyranny, as the Mameluks denied Christ that they might follow Mohamed".

(٥٧) انظر (Quatremère : Op. Cit. II. 1. p. 5. N. 5.) .

(٥٨) الحشداش — أو الخوشداش أو الحجداش أو الخوجداش — معرب اللفظ الفارسي خواجاتاش ، ومعناه الزميل في الخدمة ؛ والحشداشية في اصطلاح عصر الممالك بمصر الأفراد الذى نشأوا عند أستاذ واحد ، ويقابلها في الفرنسية لفظ (Camarades) . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 43. N. 64.)

(٥٩) انظر (Enc. Isl. Art. Mamlūks) .

(٦٠) يوجد بالمقرئى (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٨٨) نص حوار دار بين بعض الممالك البحرية الصالحية ، الذين فروا من مصر من وجه السلطان المعز أيبك إلى سلطان السلاجقة الروم ، وبين ذلك السلطان السلجوقي ، وهو يوضح تماماً أهمية علاقتي الرماله والأستاذ في تطورات تاريخ الممالك .

(٦١) المناخ المكان الذى تناخ به الجمال ، وكان يطلق أيضاً زمن الدولة الفاطمية على عدة

من الحواصل والمخازن ، ومنها ما كان لطحن الغلال اللازمة لجرايات القصور الخليفة وخبرها ، ومنها ما كان لحزن الأخشاب والحديد وآلات الأسطول والأسلحة . وكان الصناعات في هذه الأمكنة من الطحانين والجزارين والدهانين ، والحياطين والفعلة وصناعات الأسلحة ، من أسرى الحروب من الفرنج ، وكانوا يقطنون به . (المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٤٤) .

(٦٢) ليس لهذا اللفظ علاقة بكلمة "استاذ" التي سبق شرح معناها في مصطلح دولة الماليك ، إذ المقصود بالأستاذين هنا فئة من خواص الخليفة الفاطمي ؛ وكان لهم في الدولة الفاطمية مكانة جليلة ، وكان منهم أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة كصاحب المجلس وصاحب بيت المال وصاحب الدفتر وحامل الدواة وشاد التاج . انظر الفلقشندي (صبح الأعمش ، ج ٣ ، ص ٤٨١ ، ٤٨٤) .

(٦٣) هذا اللفظ أيضا من مصطلح الدولة الفاطمية بمصر ، وكان يطلق على فئة من خاص الخليفة ، ويسمون "صبان الحجر" ، وهم حسبما جاء في الفلقشندي (صبح الأعمش ، ج ٣ ، ص ٤٨١) "جماعة من الشباب يناهزون خمسة آلاف نفر ، مقيمون في حجر منفردة ، لكل حجرة منها اسم يخصها ، [و] يظاهرون ممالك الطباق السلطانية ... المعبر عنهم بالسكتانية" ، في اصطلاح دولة الماليك .

(٦٤) قارن ما جاء هنا بشأن أصل الترابي بأصل بعض فرق الإنكشارية في (Enc. Isl.

Arts. Janissariles & Dewshirme)

(٦٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٧٥ ، وما بعدها .

(٦٦) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٨ ، وما بعدها .

محمد مصطفى زبارة

جزوب
معين التاريخ
لأهل التاريخ